الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

"وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى"

مواجهة ثالوث الخطر الإلكتروني
السحر والشعوذة والدجل"

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations Educational, Scientific and Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEF
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

"بسم الأرواح السبعة والكواكب الثمانية، أدعوك يا روح التقنية العظمى أنْ تفتحي أبواب الثروة والحب والشفاء لحامل هذه الرسالة...

اقرأ هذه الكلمات ثلاث مرات عند اكتمال القمر وأرسلها لسبعة أشخاص قبل منتصف الليل وستحصل على ما تريد خلال أسبوع... احذر من عدم إرسالها وإلا ستصيبك اللعنة الرقمية..."

هكذا تبدأ إحدى الرسائل التي تنتشر كالنّار في الهشيم عبر منصّات التواصل الاجتماعي، حاملة معها خليطاً مريباً من الكلمات الرنّانة والتهديدات الناعمة المبطّنة، إلاّ أنّ الحقيقة المُرّة أنّ ما قرأتموه للتوّ ليس سوى نصٍ اخترعناه في هذه اللحظة لنبرهن على حقيقة صادمة مفادها:

إنّ صناعة الوهم والدجل أسهل ممّا نتصوّر، وأنّ كلمات برّاقة مرصوفة بعناية يمكنها أنْ تخدع العقول وتستعبد النفوس.

لقد احتجنا إلى أقلّ من دقيقة لنسج هذا النص "السحري" المزعوم، مستخدمين الأساليب والحيل النّفسيّة ذاتها التي يوظّفها المشعوذون والدجّالون منذ قرون؛ الغموض المقصود، والوعود البراقة، والتهديد الناعم المبطّن، واستغلال الخوف والأمل في آنٍ واحد، فهذا المثال البسيط يكشف لنا الحقيقة العارية بأنّ السحر والشعوذة والدّجل ليسوا سوى صناعة وهم محترفة تعتمد على استغلال نقاط الضعف الإنسانية، وإذا كان هذا الأمر محزناً في عصر ما قبل التكنولوجيا، فإنّه قد أصبح كارثياً في عصرنا الرقميّ إذ تتضاعف قوة انتشار هذه الآفات بسرعة الضوء.

ففي عالم يمكن فيه لرسالة واحدة أنْ تصل إلى ملايين الأشخاص في ثوانٍ معدودة، وتخفي الشاشات فيه هوية المرسلين الحقيقية، تزدهر تجارة الأوهام كما لم تزدهر من قبل، وهنا تكمن خطورة الثالوث الشيطاني: السحر والشعوذة والدجل، والذي وجد في الفضاء الإلكتروني أرضاً خصبة للنمو والانتشار.

فنحن نحيا في واقع يعيشه الملايين في عصر التكنولوجيا الرقمية، إذ قد تطوّر كلّ من السحر والشعوذة والدّجل من الشكل التقليديّ إلى صيغ إلكترونية أكثر تعقيداً وخطورة، وهنا تتجلّى حكمة القرآن الكريم في قوله تعالى: "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" (طه: 69)، لتشمل كلّ زمان ومكان، بما في ذلك الفضاء الرّقمي الذي نعيش فيه اليوم.

فالسحر في العصر الرقمي لا يقتصر على الطقوس التقليدية، بل يمتدّ ليشمل التلاعب النفسيّ والوهم المبرمج عبر الذكاء الاصطناعي، فها نحن نجد اليوم تطبيقات وبرامج تدّعي القدرة على "تغيير القدر" أو "جلب الحظ" من خلال أكواد وبرمجيّات مصمّمة لاستغلال نقاط الضعف النفسيّ لدى المستخدمين، وهذا النوع من السحر الرقميّ يعتمد على خلق حالة من التعلّق المرضيّ بالتكنولوجيا، إذ يصبح الإنسان أسيراً لوهم أنّ الآلة قادرة على تغيير مصيره.

وهناك الشعوذة الإلكترونية التي تمثّل تطوّراً خطيراً في استغلال الحاجة الإنسانيّة الفطرية للاتصال بالغيب، وها نحن اليوم نشهد انتشار منصّات رقميّة تقدّم "خدمات روحانيّة" عبر الإنترنت، من قراءة الطالع الرقمي إلى الطقوس الجماعيّة عبر البث المباشر، وهذه الممارسات لا تكتفي بخداع الضحايا مالياً، إنّما تؤثّر في بنيتهم النفسية والروحية، فتخلق لديهم اعتماداً مرضياً على مصادر خارجية للإرشاد، ممّا يضعف قدرتهم على اتّخاذ القرارات السليمة والاعتماد على إيمانهم الحقيقي.

أمّا الدّجل الإلكتروني فهو الوجه التجاريّ لهذا الثالوث، إذ يتمّ تسليع الأمل والحاجة الإنسانية للشفاء والنجاح، فنجد اليوم آلاف المواقع والتطبيقات التي تبيع "الحلول السحرية" لمشاكل الحياة بأكملها، من الأمراض إلى المشاكل العاطفيّة والماليّة، فيستخدم الدّجّال تقنيات التسويق الرقميّ المتطوّرة، مثل الإعلانات المستهدفة والذكاء الاصطناعي، لتحديد الضحايا الأكثر عرضة للاستغلال وتوجيه محتوى مخصص لهم.

وفي عصرنا الحالي، عصر التكنولوجيا، يعيش الإنسان في حالة من التناقض الوجودي، فمن جهة، يملك وصولاً لا محدوداً للمعلومات والتواصل، ومن جهة أخرى، يعاني من فراغ روحي عميق وانقطاع عن المصادر الأصيلة للمعنى والهدف، وهذا الفراغ هو ما يخلق بيئة خصبة لنموّ الممارسات الخرافية الرقمية، إذ يبحث الناس عن إجابات سريعة ومريحة لأسئلة الحياة المعقدة.

وها هي الدراسات النفسية تشير إلى أنّ الأشخاص الذين يقضون وقتاً مفرطاً وهم على المنصات الرقمية، وخاصّة وسائل التواصل الاجتماعي، أكثر عرضة للوقوع كضحايا للممارسات الخرافيّة الإلكترونيّة، ومردّ ذلك ضعف التفكير النقديّ نتيجة للتعرّض المستمرّ للمحتوى السطحيّ، والحاجة المستمرّة للتحفيز الفوري، وتآكل قدرات التّأمّل والتفكير العميق.

ناهيك عن أنّ تصميم المنصّات الرّقميّة قد تمّ بطريقة تعمل على الاحتفاظ بانتباه المستخدمين لأطول فترة ممكنة، ممّا يعني أنّها تميل إلى عرض محتوى يثير المشاعر القوية، بما في ذلك الخوف والقلق، وهذا يخلق حلقة مفرغة، إذ يصبح المستخدمون أكثر قلقاً وخوفاً، ممّا يجعلهم أكثر تقبّلاً للحلول "السحرية" التي تعدهم بالراحة الفورية.

ولمواجهة ثالوث الخطر الإلكتروني وبناء حصانة منه فإنّه يستوجب علينا بناء أساس ديني متين من خلال استحضار الجانب الروحاني والقرب من اللّٰه والالتزام بالعبادات، ومن ثمّ القيام بتطوير نمط جديد من التفكير النقدي، يستهدف ما يبثّه العالم الرقميّ من أفكار، بحيث يتضمن القدرة على تحليل المحتوى الرقمي، والتمييز بين المصادر الموثوقة وغير الموثوقة، وفهم كيفية عمل البرامج وتأثيرها في سلوكنا، فالتربية الرقمية الحديثة يجب أنْ تتضمّن تعليم الطلبة كيفيّة التعامل مع المعلومات الخرافية والمضللة، وتطوير قدراتهم على البحث والتحقق من المصادر، وهذا يتطلّب منهجاً تعليمياً يجمع بين التعليم التقني والتربية الأخلاقية والروحيّة.

ويأتي دور الأسرة ها هنا لتقوم بحماية أفرادها من مخاطر الثالوث الإلكتروني، من خلال تطوير الوعي الرقمي لهم، فيمكنهم مراقبة وتوجيه استخدام أطفالهم للتكنولوجيا بطريقة صحيّة، فيكون الحوار مفتوحاً حول مخاطر الممارسات الخرافية الرقمية، ويتمّ تقديم البدائل الإيجابية وبناء علاقة قوية مبنية على الثقة والتواصل.

ولو أردنا العودة لمصدر أصيل للحماية من هذا الثالوث، لوجدناه ماثلاً أمامنا في قوله تعالى في محكم كتابه العزيز: "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" (طه: 69)، فهذه الآية تعكس بشرى للأفراد بأنّ السحر والخداع مهما تطوّرت أشكاله ووسائله، محكوم عليه بالفشل في النهاية، وفي السياق الرقمي، فإنّ أشكال الخداع والنصب والاحتيال والاستغلال الإلكتروني جميعها ستنكشف حقيقتها للناس، والحق سيظهر والباطل سيزهق، فالآية تذكّرنا بأنّ النصر الحقيقي ليس في مواجهة السحر بسحر آخر، إنّما في الاعتماد على القوة الإلهيّة والحقيقة المطلقة، ففي العصر الرقمي يتمّ ترجمة هذا المعنى إلى ضرورة العودة إلى المصادر الأصيلة للحكمة والإرشاد، بدلاً من الاعتماد على الحلول التكنولوجية الوهمية.

ناهيك عن أنّ بناء الحصانة الحقيقيّة ضدّ الثالوث الإلكتروني تتأتّى من بناء علاقة قوية مع اللّٰه والاعتماد على التوجيه الإلهي في جميع جوانب الحياة، وهذا يتطلّب تطوير ممارسات روحية منتظمة، كالصلاة والتأمل وقراءة القرآن.

كما ويتطلّب إلى جانب ما سبق، أنْ يكون هناك بناء لفهم عميق لمقاصد الشريعة وحكمتها، وكيفيّة تطبيقها في السياق المعاصر، وهذا الفهم يوفّر إطاراً أخلاقياً قوياً للتعامل مع التحديات الرقمية، ويساعد على اتخاذ قرارات سليمة في بيئة تكنولوجية معقدة.

ومن منظور آخر، فإنّ هنالك إستراتيجيات عملية لمواجهة هذا الثالوث؛

فعلى المستوى الفردي، يمكن من خلال التربية الذاتية المستمرة وتطبيق مفهوم المسؤوليّة الفرديّة أن يتحمّل الفرد مسؤولية تطوير وعيه الرقمي ومعرفته بمخاطر الثالوث الإلكتروني، فيبحث بشكل مستمر عن المعلومات الموثوقة، ويتعلّم من التجارب الشخصية وتجارب الآخرين، ويطوّر مهارات التفكير النقدي، ويمكن التوّجه نحو إنشاء بيئة رقمية صحية باختيار المصادر الموثوقة للمعلومات، وتجنب المحتوى المشبوه، وإنشاء حدود زمنية صحية لاستخدام التكنولوجيا، وبناء شبكة دعم اجتماعي قوية في الواقع عوض الاعتماد على التفاعلات الرقمية وحسب، وهناك الممارسة الروحية المنتظمة التي تعمل على توفير الاستقرار النفسي والوضوح الذهني اللازمين لمقاومة إغراءات الإعلانات السحرية الزائفة.

وعلى المستوى المجتمعي، يمكن مواجهة الثالوث من خلال تطوير برامج التوعية المجتمعية الشاملة التي تستهدف فئات المجتمع على اختلافها، وتقوم بتعريفهم بمخاطر الثالوث الإلكتروني وسبل الوقاية منه، ومن خلال التعاون بين المؤسسات التعليمية والدينية والأمنية والتكنولوجية يمكن بناء تعاون لمواجهة هذا التحدي بطريقة متكاملة وفعالة، ناهيك عن ضرورة تطوير وابتكار التقنية الإيجابية وتشجيع التفكير النقدي والنمو الروحي الصحيح، كما ويقع على عاتق المتخصصين ومزودي خدمات الانترنت للمجتمعات القيام بمراقبة المواقع المشبوهة التي تبثّ الدجل والشعوذة والسحر الرقميّ، وتعمل على حظرها ومنع وصولها للمستخدمين، كما ويقع على عاتق المؤسّسات الإعلامية القيام بنشر التوعية الرقمية المستمرّة حول مخاطر هذا النوع من المواقع الاحتياليّة وآثارها في النسيج الاجتماعيّ.

وبعد،

فإنّ مواجهة ثالوث الخطر الإلكتروني ليست مجرد تحدٍ تقني أو أمني، بل هي معركة شاملة من أجل حماية الإنسانيّة من استغلال أعمق احتياجاتها وأكثر نقاط ضعفها حساسيّة، فليس الحلّ رفض التكنولوجيا أو العودة إلى الماضي، بل تطوير وعي فكريّ رقمي ناضج، وحصانة روحية قوية تمكّننا من الاستفادة من إيجابيات التقدّم التكنولوجيّ مع تجنّب مخاطره.

ففي الآية الكريمة "وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى" منارة أمل وتوجيه في عصر التعقيد الرقمي، فهي تذكير لنا بأنّ الحق أقوى من الباطل، وأنّ النور أقدر على تبديد الظلمات، وأنّ الإنسان الواعي المؤمن قادر على التغلب على أشكال الخداع والاستغلال جميعها، مهما تطورت وسائلها وتعقدت أساليبها.

فالمستقبل الرقمي الآمن يتطلّب منّا أفراداً وأسراً ومؤسّسات ومجتمعات مدنيّة وأهليّة، أنْ نتحمّل مسؤولياتنا في بناء وعي رقمي ناضج، وتطوير أدوات المواجهة الفعالة، والاستثمار في التربية الشاملة التي تجمع بين التقدّم التكنولوجي والحكمة الروحيّة، وفقط من خلال هذا النهج المتكامل يمكننا أنْ نضمن بأنْ تخدم التكنولوجيا الإنسان، لا العكس، وأنْ تكون أداة للخير والنماء، لا للاستغلال والفساد.